القاعدة العمرية الأولى في مكافحة وباء الفساد الإداري

31-5-2002

مهيوب خضر محمود

وتفيد تقارير هذه المنظمة لفترة الخمس سنوات الماضية، تربع أكبر الدول الإسلامية على قائمة الدول التي يكثر فيها انتشار وباء الفساد الإداري في العالم, ومنها أندونيسيا وبنجلادش ونيجيريا وباكستان, هذا في الوقت الذي يتقدم فيه كيان العدو الصهيوني على جميع الدول العربية والإسلامية في هذا المجال.

تؤكد الدراسات العلمية الحديثة في مجال مكافحة الفساد الإداري أن الفقر الذي تعاني منه معظم دول العالم اليوم إنما هو نتيجة للفساد الإداري وليس سببا له, ففي حال فقدان مبالغ كبيرة من الأموال العامة بطرق غير مشروعة, يؤثر ذلك سلبا في النتيجة الإجتماعية والإقتصادية, تأثيرا يتمثل في حرمان المواطنين من حقوقهم والتقتير عليهم. وخير مثال على ذلك ما حدث في أندونيسيا التي يعاني أغلبية سكانها الـ 250 مليون نسمة من الفاقة والعوز وقلة ذات اليد, بينما تربع رئيسها سوهارتو الذي حكم البلاد مدة 33 عاما, على ثروة تقدر بـ 43 مليار دولار, وهو اليوم مازال يحاكم

بقلم مهيوب خضر

كلمة سجلها التاريخ بماء من ذهب, قالها سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه مادحا سياسة الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مكافحته لوباء الفساد الإداري, حيث قال له يوما ما : " عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعت"1

هذه القاعدة الذهبية في مكافحة خلايا وباء الفساد الإداري, هذا المرض الذي يشبه في طبيعته مرض السرطان, والذي كان ولايزال سببا لتخلف العديد من دول العالم الثالث, وعلى رأسها الدول العربية والإسلامية, رفعتها منظمة "الشفافية العالمية"2 شعارا, مع بداية الألفية الثالثة ونصه بالإنجليزية:

"THE FISH ROTS FROM THE HEAD FIRST"

بمعنى :" السمكة تتعفن من الرأس أولا" . وتفيد تقارير هذه المنظمة لفترة الخمس سنوات الماضية، تربع أكبر الدول الإسلامية على قائمة الدول التي يكثر فيها انتشار وباء الفساد الإداري في العالم, ومنها أندونيسيا وبنجلادش ونيجيريا وباكستان, هذا في الوقت الذي يتقدم فيه كيان العدو الصهيوني على جميع الدول العربية والإسلامية في هذا المجال. تؤكد الدراسات العلمية الحديثة في مجال مكافحة الفساد الإداري أن الفقر الذي تعاني منه معظم دول العالم اليوم إنما هو نتيجة للفساد الإداري وليس سببا له, ففي حال فقدان مبالغ كبيرة من الأموال العامة بطرق غير مشروعة, يؤثر ذلك سلبا في النتيجة الإجتماعية والإقتصادية, تأثيرا يتمثل في حرمان المواطنين من حقوقهم والتقتير عليهم. وخير مثال على ذلك ما حدث في أندونيسيا التي يعاني أغلبية سكانها الـ 250 مليون نسمة من الفاقة والعوز وقلة ذات اليد, بينما تربع رئيسها سوهارتو الذي حكم البلاد مدة 33 عاما, على ثروة تقدر بـ 43 مليار دولار, وهو اليوم مازال يحاكم أمام محاكم الدولة بتهم الفساد الإداري والنيل من أموال الدولة بطرق غير مشروعة, حتى وصل به الأمر إلى إستغلال أموال سبع مؤسسات خيرية تابعة للدولة. لقد ذهبت الإدارة العمرية عبر التاريخ مثالا يحتذي وهي تؤصل مبادئ قامت عليها دولة الإسلام, وقوانين طبقها الخليفة على نفسه قبل غيره, فغدت خلافة الإسلام في عهد عمر بن الخطاب أرضا خالية من وباء الفساد الإداري, نعم أهلها بالخير

حتى حصل كل مولود في أرض الخلافة منذ يوم ولادته الأول على راتب شهري من بيت مال المسلمين يعين الوالدين على تربيته وقضاء حوائجه. أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أطراف معادلة الفساد الإداري خير إدراك, وعرف نقطة البداية فألزم نفسه بها, فمنذ اليوم الأول لخلافته دعا إليه أفراد أسرته فقال لهم:" إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم, فإذا وقعتم وقعوا, وإن هبتم هابوا, وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه, إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني"3. ونلاحظ هول ورهبة الموقف وخطاب الخليفة يحوي قسما لا يحمل بين طياته إلا جدية التنفيذ, بمضاعفة العقوبة على كل من تسول له نفسه من أهل بيته النيل من مال المسلمين بغير حق ومخالفة قوانين الخلافة. ارتقت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب في مكافحته للفساد الإداري لحد التورع عن الشبهات مهما كلفه هذا الأمر من مشقة تكدر صفوالعيش, فها هو يقسوعلى نفسه, ويقدر له ولعائلته من بيت مال المسلمين, مالا يشبعه أو يشبع عياله, ومالا يكسوه أو يكسوهم, وقد كان صاحب تجارة تكفيه قبل توليه خلافة المسلمين, فاجتمع علي وعثمان وطلحة والزبير, فجاءوا إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر, وأشاروا عليها أن تحدث أباها أمير المؤمنين في زيادة ما يتقاضاه, فالمغانم بحمد الله عظيمة, وقد كثر المال, فلما كلمته حفصة في ذلك غضب, وسألها عمن أشار عليها بما قالته, فقالت :"لا سبيل إلى علمهم" ثم قال:" يا حفصة, قولي لهم إن مثلي ومثل صاحبي, كثلاثة سلكوا طريقا, فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل, وتبعه الثاني فسلك طريقه فأفضى إليه, ثم أتبعه الثالث, فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما, وإن سلك غير طريقهما, لم يدركهما"4. لقد أنزل نفسه من بيت مال المسلمين منزلة ولي اليتيم فها هو يقول:" ألا إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم: إن استغنيت استعففت, وان افتقرت أكلت بالمعروف". يخرج عمر بن الخطاب يوما إلى السوق في جولة تفقدية, فيرى إبلا سمانا, تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها, فيسأل : إبل من هذه..؟ قالوا : إبل عبد الله بن عمر. وينتفض أمير المؤمنين وكأن القيامة قامت فيقول: عبد الله بن عمر .. بخ بخ. يا ابن أمير المؤمنين..!! وأرسل في طلبه من فوره, وأقبل عبد الله يسعى, وحين وقف بين يدي والده, قال لإبنه: ما هذه الإبل يا عبد الله..؟ فأجاب: إنها إبل أنضاء- أي هزيلة- اشتريتها بمالي, وبعثت بها إلى الحمى- أي المرعى- أتاجر فيها, وأبتغي ما يبتغي المسلمين, فعقب عمر في تهكم لاذع:

ويقول الناس حين يرونها .. ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين.. اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين.. وهكذا تسمن إبلك, ويربو ربحك, يا ابن أمير المؤمنين. ثم صاح به: يا عبد الله, خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل, واجعل الربح في بيت مال المسلمين 6.

لم يكتف الفاروق عمر بهذا السياج الذي أحاط به نفسه في حربه ضد الفساد الإداري, بل أحاط نفسه بسياج آخر شكل محور الأمان الحقيقي للقضاء على جذور هذا الوباء في المجتمع, عندما رفع شعار: " الحاكم تحت رقابة المحكوم"

حيث عمد الخليفة بهذه السياسة إلى الإرتقاء بجانب الرقابة الإدارية إلى أبعد مستوياتها, خصوصا وأن الخليفة عاد ليبدأ بنفسه مرة ثانية, يروى أنه دعى الناس فصعد المنبر فقال:" يا معشر المسلمين, ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا..؟ إني لأخاف أن

أخطئ فلا يردني أحد منكم تعظيما لي, إن أحسنت فأعينوني وإن أسئت فقوموني".
فقال رجل :" والله يا أمير المؤمنين, لو رأيناك معوجا, لقومناك بسيوفنا". عندها أجاب الخليفة الزاهد والفرحة تعمر قلبه، قائلا :" رحمكم الله, والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم عمر بسيفه". لقد أراد أن يبرهن للرعية وبشكل قاطع, أنه لا حصانة لأحد أمام القانون, حتى لأمير المؤمنين نفسه, بالرغم من موقعه الدبلوماسي عالي المستوى, فقد أدرك الفاروق منذ اليوم الأول لخلافته أن : السلطة المطلقة = فساد مطلقكما أراد أن يدفع ويفعل دور الرعية في مكافحة هذا المرض الخطير الذي يحتاج إلى تكاتف الجهود, حاكمين ومحكومين. كان هذا هو الحرف الأول من سياسة الفاروق عمر بن الخطاب في احتواء خلايا الفساد الإداري والقضاء على جذورها, لقد فكر فأبدع فنجح عندما جعل من نفسه قدوة للأمة جمعاء, حينما عفت نفسه ويده عن أموال المسلمين, فعفت الرعية من بعده, ووزع المال على أصحابه بالحق, فنال كل ذو حق حقه, فعم العدل, ووقي المجتمع من ويلات سرطان الفساد الإداري. هذا هو الخليفة عمر الذي كان يسير في طرقات المدينة لابسا ثوبا به احدى وعشرون رقعة, ويبطئ يوما عن المسلمين في صلاة الجمعة, ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلا:" حبسني قميصي هذا, لم يكن لي قميص غيره"7. لقد أتعب عمر الإداري العبقري, كل إداري وقائد وحاكم من بعده, وجعل مسؤولياتهم فادحة وكبيرة, فهل من أمل بعده.

1 - تشير كلمة رتع إلى الأسلوب الذي تتناول به الماشية طعامها , حيث تأكل من أي مكان ترى فيه الزاد دون قيد أو شرط, وهذا هو عين معنى الفساد الإداري, حيث تمد اليد إلى المال العام الموجود أمامها لتنهل منه دون التفكيرفي جواز ذلك من عدمه, أو الحلال والحرام.

2 - منظمة الشفافية العالمية, هي منظمة دولية تأسست في ألمانيا في بداية التسعينات وتعنى بموضوع مكافحة الفساد الإداري في جميع أنحاء العالم, لها فروع ومكاتب في مختلف الدول, وتصدر تقريرا سنويا عن مستوى تقدم أو تراجع الفساد الإداري في كل دولة ونسبة ذلك.

3 – الفاروق عمر بن الخطاب, عبد الرحمن الشرقاوي, دار غريب للطباعة والنشر ص 64.

4 – المرجع السابق ص 66.

6 - خلفاء الرسول- خالد محمد خالد- ص 199.

7 – المرجع السابق ص 232.